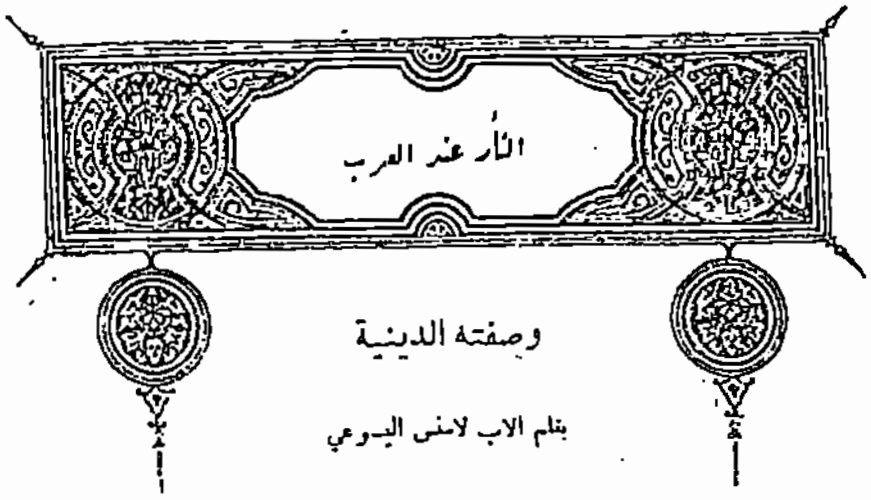

٢

لقد حاولنا ، في مقال سبق[1] ، ان نحدّد ما كان يكتنف عادة الثار من مظاهر وصفات تُلحقها بالمؤسسات الدينية عند العرب الاقدمين. وها اننا اليوم نعرض لدور النساء ، نوادب وشواعر ، في تحريض المولود على الاخذ بثأره ، منتقلين الى موقف المولود من واتره عند الآثار ، وما كان يقوم به ، بعد ادراك الثار ، من اعلان عن عمله ونشر لمأثرته. وقد وصلنا ، في كل هذه الابحاث ، الى بُعيد الهجرة ، وعقلية العرب لم تزل هي هي في ما خصّ شريعة الثأر.

اذا تردّد ابناء القتيل ، او اخوته ، في القيام بواجب الآثار - واحياناً كانوا يترددون متراجعين امام العقبات والمخاطر العديدة — عند ذاك كانت تنبري النساء ، فيرفعن اصواتهن ، مذكّرات الرجال بالواجب المقدّس ، ويذكين في الافئدة المتناسية شعلة الثأر ، فتضطرم مثيرةً عصبيّة البدوي ، عبيدةً ، الى وقتٍ ما ، حماسته الاولية ، دافعةً به الى اقتحام الاهوال في سبيل ثاره . تلك حالة دريد بن الصمّة وريحانة بنت معديكرب ، اذ حضّته على القيام بواجبه قائلةً : « يا بنيّ ، ان كنت عجزت عن طلب الثأر باخيك ، فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد. » فانف ، وخرج غازياً حتى جاءها بالقاتل فقتله امامها ، في

---

١) « مشرق » هذه السنة ، ص ١—٢٠

فنائها[1]. وتلك حالة عمرو بن معديكرب، وقد قتل اخاه رجلٌ من بني مازن. فجاءه اهل القاتل ورجوا منه ان يقبل الدية. فهمّ عمرو بذلك، وقال: «احدى يديّ اصابتني.» فبلغ الخبر اختاً لعمرو يقال لها كبشة ... فغضبت. فلما وافى الناس من الموسم قالت شعرًا تعيّر عمرًا:

أأرسل عبداللهِ، اذ حان يومه، ... الى قومه: لا تقبلوا لهمُ دمي
ولا تأخذوا منهم افالًا وأبكرًا، ... واترك في بيت بسعدة مظلما[2]
ودعْ عنك عمرًا، ان عمرًا مسالمٌ؟ ... وهل بطن عمروٍ غير شبر لطعم؟
فان انتم لم تقبلوا، واتديتمُ؛ ... فشُدّوا بآذان النعام المصلّم[3]
أيقتل عبد الله سيّد قومه ... بنو مازنٍ، ان سبّ راعي المخزّم[4]

فانصرف عمرو عن قبول الدية، واغار على بني مازن[5].

وتلك حالة مصعب وجناح ابني عمرو السلولي، عندما قتل ابن الدمينة اخاهما مزاحمًا. فسعى قوم في الصلح بين اهل القاتل واهل القتيل لما كان بينهما من صلة النسب، فقالت امه ترثيه وتحضهما على ادراك ثأره:

باعلي، ومالي، بل بجلّ عشيرتي ... قتيل بني قيرٍ بغير سلاح[6]
فهلّا قتلتم بالسلاح ابن اختكم، ... فتظهر فيه للشهود جراح!
فلا تطمعوا في الصلح، ما دمت حيّةً، ... وما دام حيًّا مصعبٌ وجناح
ألم تعلموا ان الدوائر بيننا ... تدور، وان الطالبين شحاح[7]

واكثر ما كان يتجلّى دور النساء في المآتم. فان الأمهات، والاخوات،

---

١) وقد ذكرنا هذه الحادثة في المثال الاول: «مشرن» هذه السنة، ص٥. وراجع: شيخو: شعراء النصرانية، ص ٧٦١؛ الاغاني ٩: ٧

٢) بسعدة: وفي رواية: بصعدة.

٣) وقد ذكر الجاحظ الشطر الاول من هذا البيت:
فان انتم لم تثأروا باخيكمُ ...

٤) وفي الجاحظ:
جدعتم بعبد الله آنف قومكم، ... بني مازنٍ، ان سبّ راعي المخزّم

٥) الاغاني ١٤: ٢٤-٢٥؛ الجاحظ: الحيوان ٤: ١٢٧

٦) بغير سلاح: وذلك ان ابن الدمينة كان قد قتل بثوب فيه حصى جعل يضرب به كبده.

٧) الاغاني ١٥: ١٥٢

والزوجات — الّا اذا كانت الزوجة من قبيلة غريبة[1] — وسائر ذوات القربى يبدأن بانشاد المراثي ؛ وفي كل مرثية مكان خاصّ للتحريض[2] . يشهد بذلك شعر الخنساء بجمله ، واكثر الشعر الرثائي الجاهلي ، حتى ان البحتري افرد فصلًا من « حماسته » ، هو الفصل العاشر ، « لما قيل في التحريض على القتل بالثأر وتركه قبول الدية » وفصلًا آخر ، هو الفصل الحادي عشر ، « لما قيل في الامتناع عن الصلح »[3] جمع فيهما عدة مقاطع من شعر الرجال والنساء.

وقد كان من تأثير هذه العادة في الشعر ان المراثي فقدت كثيرًا من قوة الابتكار ، فغدت تدور على محور معروف وتقسيم مقرّر ، فتراجع التعابير نفسها ، على وتيرة واحدة ، بل اضحت كانها نسخ متعدّدة لصورة اصلية واحدة ، كلّما زاد عددها تحل رواؤها ، وضعفت شخصيتها . وهو ما نراه في شعر الخنساء نفسها ، فنأسف لتلك المراجعات المتواترة ، وتختلف من اعجابنا بشواعر العرب قبل الاسلام . ذلك ان العادات الرثائية كانت تفرض عليهنّ الندب في سبيل التحريض ، كما قدّمنا ، وواجب التحريض كان يفرض المراجعات ، بل الدوران في محيط ضيّق .

ونتيجة ادبية اخرى ادّى اليها واجب التحريض في المراثي ، هي تلك المبالغات الشعرية المضحكة التي كانت تصل اليها الشواعر في ندبهنّ وبكائهنّ . كان عليهنّ ان يدفعن القوم الى الاخذ بثأر القتيل . واذًا فقد كان يجب ان يظهر القتيل بمظهر مَن يستحقّ ان تهتمّ القبيلة جمعاء باخذ ثأره . وهكذا فقد كان ادنى رعاة الابل خطرًا يتحوّل الى سيد كريم يحمي الارامل ، ويطعم الايتام . وقد شعر العرب انفسهم بما في هذا النوع من مبالغات مضحكة ، واكاذيب تدفع الى الهزء ، فقالوا :

. . . وبعض الباكيات كذوبُ (٤)

---

١) الاغاني ٦ : ١٥١ ؛ ابن سعد : الطبقات ٣ : ٨١

٢) اطلب : Rhodokanaki, *Ḥansā' und ihre Trauerlieder*, p. 85

٣) البحتري : الحماسة (طبعة شيخو) ص ٢٨ و ٢١

٤) الاصبهاني (Ahlwardt) ١١ : ١٧

وجمعوا النوادر المتنوعة على النوادب. وقد لا يخلو من فائدة ذكر واحدة منها نقلها ابن عساكر منسوبة الى الاصمعي ، وذلك في ترجمته لاسماء بن خارجة ، قال:

« كان اسماء ، ذات ليلة ، جالساً في منزله ، على سطح ، ومعه نساؤه ، اذ سمع في جوف الليل نادبة تندب ، وهي تقول :

ألا فابكي على السيد لما تش نيرانه
ولما يطل المهد ، ولما تقل اكفانه
عظيم القدر والجفنة ما تخمد نيرانه

فاستوى اسماء جالساً ، وقد اشتدّ جزعه ، وهو يقول : « انا لله وانا اليه راجعون ! يا غلام ، يا غلام » . فاتاه جماعة من غلمانه فوقفوا قريباً منه حيث يسمعون كلامه. فقال لاحدهم : « انه قد حدث في بعض اشرافنا حدث. فانطلق الى منزل عكرمة بن ربعي التميمي ؛ فانظر هل طرقهم شيء ؟ » فذهب الغلام. ثم عاد ، فقال : « ما طرقهم إلّا خير . » فقال له : « اذهب الى منزل عبدالملك بن عبدالله التميمي ؛ فانظر هل طرقهم شيء ؟ » فذهب ، ثم عاد ، فقال : « ما طرقهم الا خير . » ثم لم يزل يبعث الى منازل اشراف الكوفة رجلاً رجلاً ممن يقرب جواره ، فيسأل عنهم ، الى ان قال له بعض جيرانه : « اصلحك الله ! ليس الامر كما تظنّ . » قال : « فما هذه النادبة ؟ » فقالوا : « هذه ابنة فلان البقال ترثي ابوها فهي تندبه . » فقال اسماء : « سبحان الله ! ما رأيت كالليلة قطّ . » ثم اقبل على نسائه فقال : « عزمت على كل واحدة منكنّ ، ان حدث بي حدث ، ان لا تندبني نادبة بعد ليلتي هذه ابداً . »[1]

على ان التحريض نفسه ، بصرف النظر عن موادّ الرثاء من تعظيم قدر المرثي وشمول المصيبة به ، كان يسمو في اكثر الاحيان فوق التقليد والمبالغات ، فيخرج من القلب طبيعياً شخصياً. وذلك ان شعور الامّهات والاخوات والزوجات اسهل استثارة من شعور الاخوة والابناء والآباء ، وادعى الى الاخذ بالخيال والتصوّر. حتى انهنّ يتناسين ، او ينسين فعلاً ، كل ما يحول دون ادراك الثأر

١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (طبعة بدران) ٣: ٤٥-٤٦

من مخاطر وعقبات ، بل يصبحن مستعدات لقبول مصائب جديدة في سبيل ادراك ثأر قديم. ذلك ان نداء « الدين » ، نداء العاطفة الصلبة ، يرفعهنّ حيناً فوق نزعات الحنوّ النسائي المعتادة . فضلاً عن ان المعيشة القلقة في ذاك القفر المخوف عملت نوعاً على تقوية صبرهنّ تجاه المخاطر الدائمة. حتى اصبحت حياة البدو خاضعة الخضوع التام لشريعة الثأر وما تثيره من واجبات ومشاكل ، وحتى اصبحت مراحل تلك الحياة تُقطع حسب هذا النظام الذي لخّصه دريد ابن الصمّة بقوله :

يُغار علينا ، واترين ، فيُشتفى بنا ، إن أُصبنا ؛ او نُغير على وتر(١)

وان لنا في ديوان الخنساء المثال الاعلى لهذا النوع من الشعر الرثائي التحريضي - من الحق ان الشاعرة لم تخترع شيئاً ، لان صفة النوع التقليدية الدينية كانت تحول بينها وبين الاختراع فتدفعها الى المراجعات الدائمة والدوران المتتابع ، ولكن من الحق ايضاً ان الخنساء اظهرت شيئاً من الشخصية حتى ضمن ذاك المجال الضيّق ، فاخذت تردّد عوامل التحريض بعاطفة ، وطول نفس ، وتفنّن ، اوصلتها عن جدارة الى اعلى مرتبة بين شواعر العرب. على كونها لم تخلُ من مبالغة في دفع قومها بني سُليم الى الاثار لاخويها . فان اخاها صخراً مات في فراشه بعد مرض طويل تحمله على اثر طعنة اصابته. اما معاوية فكان مدفوناً في ليّة ، جنوبي الطائف[٢]. وقد يكون طول المدة ، وبعد القبر ، دفعا السُليميين الى النسيان ، فقامت الخنساء بواجب التذكير والتحريض. والنساء ، في مثل هذا الموقف ، ينسبن الرجال الى الجبن ، والرغبة في الطعام والشراب اذا ما قبلوا الدية ، فينادين بالويل والعار ، حتى يأنف الموتور من بيع فقيده باللبن ، اي من قبول الدية . واذا اصرّ عليه رجال الحيّ ، قال قول مسور بن زياد الحارثي ، وقد عرض عليه سعيد بن العاصي سبع ديات ، فابى وانشد :

يقول رجال ما أُصيب لهم أبٌ ولا من اخٍ : اقبل على المال تُغنِ ! (٣

١) شيخو : شعراء النصرانية ، ص ٧٥٤

٢) راجع Lammens, *La cité arabe de Ṭâif à la veille de l'hégire*, p. 75, n. 3.

٣) ابو تمام : الحماسة ، ص ١٣٠ ، البيت ٢

واذا ادرك الموتور هذه الحالة ، بفضل التحريض والتذكير، فانه يترفع عن كل رغبة في المال ، مهما كان فقيرًا ، فيأبى نياق الدية مهما بلغ عددها من مئات والوف ، ويربأ بقبيلته ان ترضى بالعقل ، لانه

دنسٌ تسودّ منه ثيابُها؛
وانّ ابنَ عمّ المرء خيرٌ من التي تبيت تناوى بالفلاة ذئابُها (١

ولا يرضى حتى يذيق الواترين « حدّ السلاح »(٢ فيمكنه ان يردّد مع عبد العزّى بن مالك الطائي :

اذا ما طلبنا ثبّلنا عند مشرٍ أبينا حلاب الدرّ او نشربَ الدما
وعمدٍ قتلنا ، بعد ما عرضوا لنا مقاديمهم ثُمنًا ، وألفًا مزنّما (٣

ويفتخر وليّ الثأر بانه لا ينسى قتيله مدى الدهر ، فهو ان « لم ينل ثأره من اليوم او غدٍ ، فالدهر ذو متطول »(٤ . وكثيرًا ما يسمع اسمه تردده « ابنة الجبل » اي الصدى ، على ما في قول سدوس بن شباب :

اني الى كل أيسارٍ ونادبة أدعو حثيثًا ، كما تُدعى ابنة الجبل (٥

هذا شيء مما يردّد على مسامع الموتور لتحريضه، يردّده النساء خاصة، وقد يردّده الموتور فيحرّض نفسه على قبول واجبات « ولي الدم » . والموتور هو اقرب اقرباء القتيل ، كما قدّمنا ، الا ان يكون هذا قد عيّن وليّ ثأره قبل موته.

فاذا اخذ على عاتقه هذا الواجب المهمّ ، امتنع عليه ان يكلّف غيره القيام به ، او يشركه بذلك. انما يجب عليه ان يضحي بنفسه في سبيل ادراك

---

١) حماسة البحتري : الرقم ١١٥
٢) حماسة البحتري : الرقم ١١٧
٣) حماسة البحتري : الرقم ١١٢
٤) حماسة ابي تمام ، ص ١١٦
٥) ابو زيد الانصاري : النوادر ، ص ١٢٤ . وقد قال شارحًا : « ان ابنة الجبل هو الصوت الذي يجيبك من الجبال والصحراء . . . يقول : اذا ندبت المرأة ميّتها دعوت لها هذا الرجل ، فيجيبني للاخذ بثأرها كما تجيب ابنة الجبل . »

ثأره . من حقّه ان يلجأ الى المعارفين والمساعدين من كبار قبيلته او من غير قبيلته[1] . فيمهدون له سبيل الوصول الى مهمّته ، كأن يدلّونه على الواتر ، او ينصبون الحبالة فيقع هذا فيها. الا انهم جميعاً يجب ان يختفوا في ساعة الثأر ، فيتأخروا عن صاحبه ، تاركين للوليّ وحده حق القيام بثأره وقتل واتره . وهو حقّ لا يتخلى عنه الموتور لحظةً ، وكثيرًا ما سمعناه يطالب به بالحاح ، فيقول قول خالد لرفيقه نافع ، وقد اعانه في ادراك واتره ، فلما رآه صاح بنافع :« اياك ان تعرض له ، فاني اضربه . »[2] او قول الحصينين : حصين بن زهير بن جذيمة ، وحصين بن اسد بن جذيمة العبسيين لقومهما :« يا بني عبس ، دعونا وثأرنا. » وفي رواية اخرى انهما قالا :« قفوا علينا حتى نعلم علمه (الضمير للواتر) فقد امكننا الله من ثأرنا. » ولم يريدا ان يشركهما فيه احد[3].

وهناك واجبات شبه طقسية على الموتور ان يحافظ عليها اثناء قيامه بالثأر . من ذلك ان يصيح بواتره ، في هجومه عليه ، او قبل ان يضربه الضربة القاضية ، فيذكر سبب عمله ، ويذكر القاتل باسم القتيل ، صارخاً :« يا لثارات فلان ! »[4] في هذه الدقيقة الرهيبة يخرج البدوي من التخفي والتستر ، وقد جاز له ان يلجأ اليهما حتى هذه الآونة ، فيبدو ديّاناً وحاكماً ومنفّذاً ؛ فلا بدّ ، والحالة هذه ، ان يسمع المحكوم عليه حيثيات الحكم من فم قاتله !

وقد تجاوزت هذه العادة في ذكر « الثارات » العصر الجاهلي الى صدر الاسلام ، فكانت كلمة التوحيد بين افراد العثمانية ، ينادون بها في مطالبتهم

---

١) الاغاني ١٥ : ١٢

٢) الاغاني ١٥ : ١٢ ؛ السطر ١٤

٣) الاغاني ١٠ : ٩ و١١ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ١٨٥ ، ٣ – وراجع قصة قيس بن الخطيم التي نشرناها في القسم الاول من هذا المقال : « مشرق » السنة الحالية ، ص ١٠

٤) راجع الامثلة العديدة على هذا في الدينوري : الاخبار الطوال (طبعة Guirgass) ، ص ٣٠٢ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤١٦ ؛ الاغاني ١٢ : ٧٢ (وفيها مثل مضحك) ، ١٧ : ١٦٤ ؛ ديوان حسّان بن ثابت ٢٠ : ٤ ؛ ابن دريد : الكتاب المذكور ، ص ١٨٥ ؛ رحلة ابن بطوطة (طبعة مصر) ١ : ٧٢ ؛ Lammens, *Tacit*... p. 168

بثأر الخليفة الثالث ، فيصيحون : « يا لثارات عثمان ! »[1] وهي الكلمة التي نادى بها ، بعد العثمانية ، « ثوّابو » العراق ، عندما ارادوا ان يثأروا للحسين بن علي ، قتيل كربلاء ، فيكفّروا عن تخلّيهم عنه اثناء المعركة .

على ان العرب كانوا يمتنعون عن هذه المناداة في الشهر الحرام[2] امتناعهم عن الغارات . فكانوا يوقفون شريعة الثار بتأثير شريعة دينية اخرى .

وكان من الممكن ان يتنوّع التعبير في المناداة . الا ان اسم القتيل ضروري ذكره . وقد يُكتفى بذكر الكنية ، كما قال انس بن عباس حين قتل ابن ورقاء الخزاعي في ابن اخته ابي الزبّان طعيمة بن عدي ، يوم بئر معونة .

تركتُ ابن ورقاء الخزاعيّ ثاوياً بمترك تسفي حوله الاعاصرُ
ذكرتُ ابا الزبّانِ لما رأيته وأيقنتُ اني عند ذلك ثائرُ ! (٣

وقد يستعمل الموتور تعبيراً آخر هو قوله ، قبل ان يضرب الواتر : « بوء بدم فلان ! » اي مُت به ! وليكن دمك كفواً لدمه ! كلّ ذلك لان الموتور يريد ان يعيّن الغاية من ضربته ، فهو يوضح نيّته بطريقة ترفع الالتباس ، حتى اذا كان في الامر ما يشكل ، لم يتراجع عن ان يوضح حقيقة غايته . كما جرى لحليس النصري ، وقد لقي خويلداً الخزاعي ، قاتل احد اقاربه المدعو هريم بن مرداس ، فقتله . فقال بنو نصر : بوء بدم فلان النصري ، رجل كانت خزاعة قتلته . فقال الحليس : « لا بل هو بوء بدم هريم بن مرداس . »[4]

وهكذا نرى ان عادة الثأر عند العرب ، كعادة البراز عند معاصرينا ، مقيّدة بنظام دقيق على الموتور ان يتبعه ، منذ يبدأ بحمل « الوتر العظيم » ، اي منذ يصبح وليّ الثأر ، فيتقيد به تقيداً طقسياً يشبه تقيّده بالعبادات القليلة في « دين » العرب .

بيد انه لا يتقيد بهذه الطقسيات ، من واجب اظهار شخصيته وذكر اسم

١) راجع كتابنا في معاوية ص ١٠٦ وما بعدها .
٢) الاغاني ١٠ : ٢٢
٣) ابن هشام : سيرة الرسول ، ص ٦٥١ ؛ ووردت الحادثة مع شيء من التحريف في الاعلام ، في ابن عساكر : تاريخ دمشق ٣ : ١٢٨
٤) الاغاني ١٣ : ٦٩

القتيل ، الا في آخر دقيقة ، وقد سهل عليه ادراك الثأر فلم يبقَ الا الضربة القاضية . اما اول الامر فيمكنه الالتجاء الى جميع الوسائط ما صلح منها وما فسد . له ان يختفي وراء الشجر ، وله ان يغيّر زيه ، وله ان يصبغ غرّة فرسه ، وله ان يلتجئ الى واتره نفسه ، حتى اذا سانت منه غفلة هجم عليه فقتله غيلة . وقد ذكرنا عدة شواهد على هذه الحالات في القسم الاول من المقال . وان لنا شاهداً جديداً في حادثة معاوية اخي الخنساء . وكان قد اغار على قوم هاشم ابن حرملة فخرج اليه هاشم واخوه دريد . فاردى معاوية هاشماً عن فرسه . وانفذ هاشم سنانه من بطن معاوية . ثم كرّ دريد على معاوية ، وهو يظنه قد قتل هاشماً ، فضربه بالسيف ، فاجهز عليه[1] . وظلّ بنو سليم ، قوم معاوية ، مدة يجهلون مَن القاتل ، فيتهاملون بادراك ثأره . فكانت الخنساء تقرّعهم وتحرّضهم بتلك القصائد التي ضخمت ديوانها . حتى عرف القاتل رجلٌ اسمه عمرو بن قيس الجُشمي فلحقه وقال : « هذا قاتل معاوية ، لا وألت نفسي ان وأل . » فلما نزل هاشم وخلا لحاجته ، كمن له عمرو بين الشجر ، حتى اذا كان خلفه ارسل اليه معبلة فقتله[2] .

اما اليوم فان اغتيال هاشم على هذه الصورة لأبعد من ان يثير فينا عاطفة تقدير واعجاب . واما في ذاك العصر فان البدوي لا يرى في الحادثة الا القيام بواجب مقدس . لقد ادرك غايته من الثأر فاطمأنت نفسه اذ اطمأنت نفس القتيل ؛ فهو لا يهتمّ بالوسائل التي استعملها في سبيل ذلك ، بل لا يهمّه ان يفكر فيها . فلا عجب اذاً ان نسمع الخنساء تفدّي الفارس الجشمي بكل عزيز لديها ، فتقول :

فدى للفارس الجشميّ نفسي ... وافديه بمَن لي من حميم
افدّيه بكل بني سُلَيم : ... بظاعنهم ، وبالأنَس المقيم
كما من هاشم افرت عيني ... وكانت لا تنام ولا تنيم[3]

---

١) الاغاني ١٣ : ١٤١

٢) الاغاني ١٣ : ١٤٦ . والمعبلة : السهم اذا كان نصله عريضاً .

٣) الاغاني ١٣ : ١٤٦ ؛ واطلب ديوان الخنساء (طبعة شيخو) ، ص ٨٠

وقد استغرب الاب دي كوبيه ، مترجم ديوان الخنساء الى الفرنسوية ، هذا المدح الرفيع « لحادثة اغتيال متصفة بالجبن » . وزاد « انه يدلنا ، اكثر من اي وثيقة ، على ما وقر في نفوس البدو من حقهم المزعوم بالثأر . وان مقتل العدو كان لديهم من المآتي الرفيعة . »[1] على ان هذا الشرح لم يصب كبد الحقيقة تماماً ، لانه اهمل معنى الثار الخاص عند البدو . قد يمكن ان نستي الثأر « حقاً » في جماعاتنا المنظمة ؛ اما في البيئة البدوية اذ ذاك ، فكان واجباً مقدساً ، كما قدمنا . وعليه فلم يكن العرب ليتوقفوا في الحكم على شرعية الوسائط المستعملة للقيام بهذا الواجب المحتم ؛ واذاً فقد كانوا ابعد من ان يعتبروا صفة القتل ، كما في حادثة الجُشمي ، هل هو من المآتي الرفيعة ام لا ؟

وما رأي معاصرينا في عمل مِقْيَس الكناني الذي يفوق عمل الجُشمي غدراً وخيانة ؛ حتى اننا لا نكاد نجد في مفرداتنا العصرية كلمة شديدة الوقع تصم بها هذا العمل الشائن . وتفصيل ذلك انه كان لمقيس اخ اسمه هاشم اسلم وشهد غزوة المريسيع مع النبي . فاتفق ان قتله رجل من الانصار خطأً ، وهو يظنه مشركاً . فقدم مقيس على النبي ، فقضى له بالدية . فقبلها ، واسلم ، دالاً بذلك انه عدل عن طلب ثأره ، حتى اذا صادف واتره مطمئناً هجم عليه وقتله . وهرب مرتداً عن الاسلام ، مفتخراً بعمله :

شفى النفسَ أن قد بات بالقاع مسندًا ، يضرّج ثوبيه دماءُ الاخادعِ
ثأرتُ به فهرًا ، وحملت عقله سراة بني النجّار ارباب فارعِ
حللتُ به وتري ، وادركت ثُؤرتي ؛ وكنت عن الاسلام اوّلَ راجع[2]

هذا عمل مقيس . اما اليوم فليس من شكّ في خيانته وغدره ؛ واما في ذاك العصر فلم يلمه احد ، اذا استثنينا المجتمع الاسلامي في المدينة الذي نظر خاصّةً الى ارتداد الخائن عن الاسلام . بل ان قومه عرفوا لهُ تلك الجرأة في الاخذ بالثأر ، والقيام بالواجب المقدس ، حتى انه عندما قتله احد بني قومه المدعو نُبيلة ، مال الرأي العام الى تقريع نُبيلة دالاً على ان المجرم في نظره ، ليس مقيس

(٢) *Le divan d'al-Hansā'*, traduit par De Coppier, p. 175

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤١ ، وراجع القسم الاول من مقالنا ، ص ٢٢

الخائن الغادر ، بل نُفيلة الذي « اخزى رهطه » ، على قول اخت مقيس :

لعمري ! لقد اخزى نُفيلة رهطَه وفجّع اضياف الشتاء بمقيَس
فلله عينا من رأى مثل مقيس ، اذا النُقساء اصبحت لم تُخرَّس (١

واذاً فان الخيانة وما اليها ، اذا كانت من مقدمات الثأر ، ليست بالخلة المذمومة في نظر البدو . بل انهم كانوا يعتبرون الخداع من معدات الحرب فيقولون : « الحرب خدعة » . ويتكلون على السرعة اتكالهم على المقدرة ، فيذكرون في صفات الجواد الحسنة سرعته في ادراك الثأر(٢) .

خيانة ، وغدر ، واسراع في الهجوم وفي الفرار ، مع جميع انواع التخفي والتستر ، من انكار الاسم ، والانتماء الى غير القبيلة ، وصبغ الناصية ، وتسويد غُرّة الفرس ، والتظاهر بالنسيان ، والصبر للفرصة مدة طويلة . كلها اساليب يلجأ اليها الموتور ، فينيم حذر الواتر ، ويسهّل على نفسه القيام بفرائض الثأر . على ان هناك من الابطال الفُتّاك مَن لم يكن يرضى بهذه الطرق الماتة الى الجبن . فكانوا ، كالحرث بن ظالم المرّي ، يتهدّدون اعداءهم علانيةً ، وينبّهونهم الى قرب يوم الثأر :

تلمّس ، ابيت اللعن ، اني قاتلك من اليوم ، او من بعده ، يابن جعفر
أخالد ، قد نبّهتني غيرَ نائم ، فلا تأمننّ فتكي ، يد الدهر ، واحذر (٣

ولكنّ ستار التخفي ، ايًّا كانت صفة الموتور ، يجب ان يسقط اثناء ضرب الواتر ، كما قدّمنا . عند ذاك يخرج الوليّ من تستّره ، فيُعلن اسمه واسم القتيل الذي يثأر به ، ويشير الى نسبه منه ، ان شاء ، ويذكر اسم الواتر الذي يقتله ، على نحو ما سبق لنا فاشرنا اليه . وهو لا يكتفي بكل هذا ، بل يعمل على اعلان عمله بالشعر ، ونشره مع الركبان في انحاء البلاد العربية . وكانه يعوّض عما بدا منه من مظاهر التخفي سابقاً ، فينادي الآن باسمه ، فعلَ خُفاف بن

---

١) ابن هشام : السيرة ، ص ٨٣٠

٢) ابن قتيبة : كتاب العرب (طبعة كردعلي في « رسائل البلغاء ») ص ٢٧٣ ؛ الاغاني ٤ : ١٥١

٣) الاغاني ١٠ : ١٨

ندبة اذ قتل مالك بن حمار الشمخي :

اقول له ، والرمح يأطر متنه : تأمل خفافاً ، انني انا ذلكا ! (١

او فعلّ علقمة بن سباع حين قتل عمرو بن الجميد :

قلت له : خذها فاني ابن ... (٢

ويستشهد الناس على فعلته :

الا سائل النعمان ، ان كنت سائلاً وحيّ كلاب : هل فتكتُ بخالدِ ! (٣

ويتبسّط في ذكر الحادثة ، واصفاً المكان والزمان ، كما في ابيات خفاف المتقدم مطلعها :

وقفتُ له طلوي ، وقد نام صحبتي لانجي بجداً ، او لاثأر مالكا ،
لدن ذرّ قرن الشمس ، حين رأيتهم سراعاً على خيل تؤمّ المسالكا . . .
تيممت كبش القوم ، حين عرفته ، وجانبت شأن الرجال الصعالكا ؛
فجادت له كفّي بطعنةٍ كست متنه من اسود اللون حالكا .
انا الفارس الحامي الحقيقة ، والذي به ادرك الابطال قدماً كذلكا !

وقد يصف عاطفته المضطربة بين الخوف والشجاعة، بين الاقدام والاحجام، بين حب الحياة والقيام بالواجب ، عندما يرى واتره القويّ فيظنّ انه ليس بكفوء له، ولكنه يشجع نفسه ويُقدم . وذلك قول مكرز بن حفص بن الاخيف القُرشي وقد ثأر لاخيه الاصغر من سيد بني بكر ، عامر بن يزيد :

لما رأيت انه هو عامرٌ ، تذكرت اشلاء الحبيب المحبَّبِ
وقلت لنفسي : انه هو عامرٌ . فلا ترهبيه ، وانظري اي مركبِ !
رأيتُ اني ان اجللتُهُ ضربةً ، متى ما أصبه بالذُرافر يعطبِ
حفظتُ له جأشي ، وألقيت كلكلي على بطلٍ شاكي السلاح مجرَّبِ
ولم اكُ ، لما التفّ رُوعي وروعُهُ ، عصارةَ هُجنٍ من فناء ومن أبِ .
حللتُ به وتري ، ولم أنسَ ذحلَه ، اذا ما تناسى ذحلَه كلُّ غيبِ ! (٤

---

١) ابن دريد . الاشتقاق ، ص ١٨٨ ؛ الاغاني ١٣ : ١٤٢
٢) الاغاني ١٥ : ٧٦
٣) للحرث بن ظالم، بعد ان قتل خالد بن جعفر ، الاغاني ١٠ : ١٩
٤) ابن هشام : السيرة ، ص ٤٣٢ — الغيب : الذي لا عقل له .

وهو حريص على ابلاغ الناس انه قام بواجبه في رائعة النهار :

ولم اقتلكم سرًّا، ولكن علانيةً ، وقد مطع الغبارُ (١

او في الصباح :

نحن الذين صبّحوا صباحا يوم النُخيل غارةً ملحاحا
نحن قتلنا الملك الجحجاحا ولم ندع لسارح براحا ،
الا ديارًا او دمًا مُناحا. نحن بنو خويلدٍ صراحا
لا كذب اليوم ولا مزاحا !(٢

لا كذب ولا مزاح ! بل هي الحقيقة يهمّ الوليّ الثائر ان يعلنها كما هي ، دون تعمية ولا اسرار ، وقد خرج من طور التخفّي ، فاخذ يخاطب الركبان ويكلّفهم نشر عمله بين الناس ، وطريقة النشر الوحيدة ، اذ ذاك ، هي الشعر :

يا راكبًا ، إمّا عرضت ، فبلّغن ابا غالبٍ ان قد ثأرنا بغالبِ ! (٣

الا أبلغْ بني العشراء عني علانيةً ، وما يُغني السرارُ :
قتلتُ سراتكم ، وحسلت منكم حسيلًا مثل ما حمل الوبارُ (٤

وقد نخطئ اذا نسبنا غاية البدويّ في نشر قيامه بثأره الى الفخر المعتاد بين العرب ، او الى عاطفة الحقد والرغبة في اهراق الدماء. انما غايته الحقيقية ان يُطلع القوم على قيامه بالواجب الديني. هي عاطفة الاطمئنان ، وراحة الضمير بالخروج من الاثم ، تدفعه الى نشر عمله المبرور :

من مبلغ افناء مذحج انني ثأرتُ بخالي ؛ ثم لم اتأثّمِ (٥

هي الغبطة بقيامه بالوصية ، « بولاية الاشياخ » :

ثأرت عديًّا والمطيم ، فلم أضعْ ولاية اشياخ جُعلت ازاءها
ضربت بذي الرمّين ربقة مالكٍ فابتُ بنفسٍ قد اصبت شفاءها (٦

---

١) البيت لحذيفة بن بدر الفزاري ؛ الاغاني ١٦ : ٣٣
٢) الابيات لابي حرب بن الاعلم المُقيلي ؛ ابو زيد : النوادر ، ص ٤٧
٣) دريد بن الصمّة ؛ الاصمعيات ٨ : ١ — وكثيرًا ما يتردّد هذا التعبير في شعر الثأر ؛ اطلب ديوان اوس بن حجر ٣٠ : ١ ؛ المفضليات ص ٥٤ ، ٢ الخ . . .
٤) شدّاد بن معاوية العبسي : الاغاني ١٦ : ٣٣
٥) عدي بن حاتم ؛ حماسة البحتري : رقم ١٥١
٦) ديوان قيس بن الخطيم ١ : ٤ — ٥

هي ذكرى الفقيد ، والامل بان ادراك الثأر يسهل عليه الاقامة في ذاك « البيت المظلم » ، فيسكن صداه ، وقد ارتوى ظمأه . كل ذلك يحمله على اعلان عمله ، وان تعرّض بدوره لثأر جديد .

ثم من شروط الثأر الا يستفيد الوليّ الثائر فائدة مادية ، فلا يسلب قتيله ، ولا يأخذ راحلته . وهذا دليل جديد على صفة الثأر الدينية . وان هذا القيد لمن اصعب القيود على البدوي الذي لا يتراجع عادةً عن السلب والذي كثيرًا ما يشتهي ان يكون له فرس خصمه ! فاذا قام بالثأر ، كما يجب ، وسواء اقتل القاتل نفسه ام غيره من قبيلته او من دينه[1] ، ام قتل عشرة بدل الواحد ، ام مائة ، كما يقول بعضهم ، « فلا لوم عليه ولا عذل »[2] .

وسواء اكان القتلى من عامة الشعب ام من الملوك :

الا تستحي منا ملوك ، وتتقي محارمنا ؟ لا يَبْوُء الدمُ بالدم !
نعاطي الملوكَ السلم ، ما قصدوا بنا ؛ وليس علينا قتلُهم بمحرَّم ! [3]

ويجدر بنا ان نلاحظ ذاك الاهتمام الذي يبديه جميع الثائرين بذكر قداسة عملهم وانه فوق التأثم واللوم والعذل ، يريح الضمير ويشفي النفس . هم يفتخرون بذلك وحقّ لهم الفخر ! لان اخذ الثأر اصعب المظاهر الدينية القديمة تنفيذًا ، واعظمها خطرًا على القائم به ، واقربها الى التجرّد والاخلاص . وان تكن

---

١) في الاغاني ١٢ : ١٢٤ ان رجلًا اتى حصين بن الحمام السهمي فقال له : « ان جارك حصينًا اليهودي قد قتله ابو جرشن ، جار بني صرمة » . فقال حصين : « فاقتلوا اليهودي الذي في جوار بني صرمة » . فاتوا جهينة بن ابي حدل فقتلوه . فشدّ بنو صرمة على ثلاثة من حيّ بن عامر ، جيران بني سهم ، فقتلوهم . فقال حصين : « اقتلوا من جيراننا من بني سلامان ثلاثة نفر . » ففعلوا .

٢) حماسة البحتري : الرقم ٥٥٤ .

٣) جابر بن حُنَيّ التغلبي في المفضليات (Thorbecke) ص ٥١ : ١٨-١٩

– ولا يخفى ما في قوله : « لا يبوء الدم بالدم » من ايجاز غامض ، صعب الشرح والتأويل . أأراد ان يقول ان الدم لا يمحو الدم وان القتل لا يشفي من القتل ؟ أم شاء الاشارة الى ان الثأر يدعو الى ثأر جديد ، وهكذا الى ما لا نهاية له ؟ ام رأى ، في عنجهيته البدوية ، ان ليس دمٌ يصلح كفوءًا لدم قتيله ؟

المراذل والنوادب قد اكثرن من اللوم والتحريض، بسبب الاهمال او التناسي، فها ان الثائر الآن، وقد اخذ بثأره «وغسل عاره»، يردّ على اولئك اللائمات، عالي الصوت، مرتفع الجبين. ويجب الا ننسب كل ما يقوله الى مفاعيل الافتخار. قد لا نصدقه في تعداده القتلى وفي كل ما تمده به مخيلته من وصف المخاطر والصعوبات. ولكن من الصعب الا يؤخذ المطالع بذاك الاخلاص، عندما يتنفّس البدوي الصعداء، كانه، بادراك ثأره، وضع عن عاتقه حملاً باهظاً، بل «شفى نفسه» كما يقول. هي عاطفة الخاطئ كفّر عن اثمه، وهتاف المؤمن اتى بعمل صالح. يشترك في ذلك النصارى كعدي بن حاتم، والمشركون كقيس بن الخطيم؛ فيملأون القفر شعرًا. وكثيرًا ما يكون ادراك الثأر سبباً لظهور شاعريّتهم.

***

قادنا ذكر بعض الحوادث الى تجاوز العصر الجاهلي حتى اوائل العصر الاسلامي، فكان من المفيد ان نعرف موقف نبي الدين الجديد من تلك الشريعة القديمة. لم يتردّد محمد في اقرار اصلها الديني، فذكرها بين الاحكام المدوّنة في «الكتاب»، اي في الوحي القديم. ولم يرَ لنفسه الحق في حذفها. على انه، لما كان ارقى من عامة معاصريه عاطفةً، واوسع فهماً ومداركَ، حاول ان يخفف من وطأة الثأر في الحياة العملية. تتحقق ذلك في القرآن، اذ يجعل القصاص «مكتوباً» على المسلمين، اي موجودًا في الوحي منذ القدم: «كُتب عليكم القصاص: الحرّ بالحرّ، والعبد بالعبد، والانثى بالانثى.»[1] وهو لا يختلف، في هذه اللهجة، عن الشعراء الجاهليين. واذا رضي عن القتل بالدية — وهذه من مؤسسات اسماعيل الجدّ الاعلى، كما ينتج من التقليد[2] — فهو يُظهر هذا التجديد، لا مظهر شريعة تحلّ محل الشريعة السابقة، بل مظهر «تخفيف» لها، و«رحمة» من الله: «ذلك تخفيف من ربكم ورحمة»[3] ولا يخفى ان هذا الموقف تقريرٌ بيّن للعقيدة البدوية القديمة في شريعة «الثأر»، وما يلحق

١) القرآن ٢ [البقرة] ١٧٣
٢) ابن قتيبة: كتاب العرب، ص ٢٦١
٣) القرآن ٢ [البقرة] ١٧٤

بها من عادة « الثأر » . ولو لم ينههم النبي عقلية البدو في نظرهم الى هذه الشريعة، فيدرك انها فرض مقدس ، بل « حق » بالمعنى الذي تظهر به هذه اللفظة في لغة القرآن[1] ، لما احتاط هذا الاحتياط في تخفيفها بعض الشيء ، ولما كان من معنى لهذه اللهجة في سن القوانين . اما لو كانت عادة الثأر وليدة حقد البدوي ورغبته في اهراق الدم ، او اثرًا من الآثار الهمجية الراقية الى « العصور الجاهلية » ، لما تردّد القرآن في نسخها ، ونسبتها الى « الكفر » ، كما فعل بعددٍ من تلك العادات القديمة ، كالنسيء مثلًا[2] .

وهل يبقى من شكّ في صفة الثأر الدينية اذا ما اطلعنا على ما ذكره ابن هشام في حادثة مكرز بن حفص القرشي ، قاتل عامر بن يزيد ، سيد بني بكر، بثأر اخيه . وخلاصة ذلك ان القاتل، بعد ان رمى واتره، « خاض بطنه بسيفه (بسيف الواتر) ثم اتى به مكة فعلّقه من الليل باستار الكعبة . »[3] ، كما يعلّق الرجل التقي نذرًا جديرًا بشكر الآلهة . . .

واننا نأخذ عن ابن هشام نفسه ، كاتب سيرة الرسول ، حادثةً تدلّ على قوّة هذه العقيدة ، وتمكنها حتى من المسلمين ، وهي واحدة من كثير مما ذكرناه في هذا القسم وفي القسم الاول من مقالنا :

كان عبدالله بن أبي من سادة المدينة . وكان لا يرى بعين الرضى تقدم المهاجرين في مدينته — وذلك بعد الهجرة — وتدخلهم في كل شيء . فحاول ان يضع حدًّا لهذه الحالة ، دون ان يجابه الاسلام . فغضب عليه النبي ، واراد قتله . وكان لعبد الله ابنٌ بارّ به ، قد دخل الاسلام واصبح من اشدّ المسلمين غيرةً على دينه الجديد ، وعلى سياسة النبي . فلما علم بالخلاف بين الرجلين ، وخشي ان يبعث النبي من يقتل اباه ، اتى محمدًا فقال : « يا رسول الله ، انه بلغني انك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه . فان كنت فاعلًا فمرني به . فانا احمل اليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل ابرّ بوالده مني

١) راجع القرآن ٢ : ٥٨ : ٦ : ١٥٣ : ١٧ : ٣٥ : ٢٥ : ٦٨

٢) القرآن ٩ : ٣٧

٣) ابن هشام : السيرة ، ص ٤٢١ ؛ الواقدي (Kremer) ص ٢٣

اني اخشى ان تأمر به غيري فيقتله ، ولا تدعُني نفسي انظر الى قاتل عبدالله ابن أبي يمشي في الناس؛ فاقتله ، فاقتل رجلًا مؤمناً بكافر ، فادخل النار.»[1]

مهما يكن من المبالغة في هذه الحادثة ، فانها تصوّر خير تصوير تأصّل عقيدة الثأر الدينية. ولنلاحظ ان هذا المسلم المتديّن لا يخالجه ادنى ريب في شرعية الثأر ، فهو لا يخشى من ان تحمله نفسه على قتل قاتل ابيه — وقد يكون خشي ذلك لو كان الاسلام قد حرّم الثأر — انما يخشى ان يقتل بابيه «رجلًا مؤمناً». وبكلمة اخرى فهو لا يخشى الثأر، انما يتراجع امام صفة الوتر، فيما لو كان مسلماً...

***

هذا ما رأينا ذكره في المقال الحاضر ، واعدين القراء بالعود الى الموضوع، في قسم ثالث ، فنجرّب وصف الضحية التي يثأر منها المرتور، منتهين الى ذكر تلك المحاولات التي اتخذ حكماء العرب يقومون بها، قبيل الاسلام، في سبيل تخفيف نتائج الثأر باقرار الدية.

---

١) ابن هشام: السيرة ، ص ٧٢٧-٧٢٨